بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 09 يوليو 2018

في مفهوم الجهاد:
حدود الإلهي والبشري

زهية جويرو
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

في مفهوم الجهاد: حدود الإلهي والبشري[1]

1- ألقيت هذه الورقة في ندوة: "الجهاد في الإسلام: معترك التأويل والتوظيف"، المنعقدة في تونس: 01 - 02 ماي/ مايو 2017، تنسيق: د. بسام الجمل ود. أنس الطريقي. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

الملخّص:

ينطلق هذا البحث من تمييز أساسي بين القرآن كلاماً إلهيًّاً، وما أنتجه المسلمون في علاقة بهذا النص التأسيسي ممَّا هو بشري تاريخي. وفي ضوئه درسنا مفهوم الجهاد في القرآن، سواء المفهوم في ذاته أو في علاقاته بكلّ ما يتنزَّل في حقله الدلالي من مفاهيم كالقتال والنفير والحرب، وقد استخلصنا من هذه الدراسة أنَّ الجهاد ذو بعدين أساسيين: بعد متصل بالذات-الفرد يبدو من خلاله الجهاد كدّاً وجهداً مبذولاً في السبيل نحو الله يضمن السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، بما يقتضيه ذلك من إيمان برسالة التوحيد وبنبوَّة محمَّد ومن تقوى وخير وصلاح، أمَّا البعد الثاني، فالجهاد مقصود به أيضاً بذل الجهد في نصرة رسالة التوحيد بردّ الأذى عنها وبمقاومة العدوان الذي يتعرَّض له المؤمنون بها.

أمَّا في ما أنتجه البشر، فإنَّ الجهاد يبدو في الغالب الأعم موجَّهاً نحو "آخر"، وهذا الآخر ما فتئت ملامحه تتحوَّل عبر التاريخ وفي علاقة بأحواله وملابساته، وهو لم يعد ذلك "الآخر" من خارج دائرة الإسلام وداره فحسب، بل إنَّه يشمل كذلك "آخر" من داخل الدائرة الإسلاميَّة نفسها، هو الآخر المذهبي-الطائفي أو الآخر المختلف رؤية وتصوُّراً وموقفاً، ومع هذا الفهم بدأت الفواصل القرآنيَّة بين الجهاد والقتال والحرب تتلاشى، إلى أن انتهى الأمر راهناً إلى تحوُّل الجهاد في عقيدة الإسلام الجهادي-الحركي إلى حرب مقدَّسة معلنة ومفتوحة ضدّ كلّ مختلف.

****

نفترض في هذا البحث أنَّ مفهوم الجهاد في القرآن جمع بين بُعدين رئيسيين: بُعد «الدخلنة»، وقد بدا بفعله الجهاد حركة متَّجهة صوب الذات والضمير، حركة تهدف إلى «التطهّر» الذاتي من آثار السائد بعباداته الموسومة بالشرك والوثنيَّة والتحريف، وبنظمه الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة المتهمة بالنقص والفوضى وفقد الشرط الإنساني، حركة الذات في سعيها إلى إدراك مستوى من الانسجام مع ما تبشّر به الرسالة الجديدة يضمن لها «الفوز». أمَّا البعد الثاني، فهو بعد «أخرج» فيه الجهاد من حدود الذات ليصوّب نحو «آخر» ما فتئت ملامحه تتشكل فتتحوَّل، هو جاهلي أو مشرك أو وثني أو كتابي محرِّف أو حتى «مسلم مطعون في إسلامه»، فعل «تطهير» دعيت الجماعة الناشئة إليه حتى تردّ عنها كلَّ آخر قد يهدّد وجودها وحتى تحفظ كيانها وهويتها الجديدة، إلا أنَّ هذا الفعل ظلَّ يتشكّل عبر التاريخ في تفاعل مستمر مع الطارئ والمستجدّ من الأوضاع، ومع تغير الأفكار والمعارف وتحوُّلات المفاهيم والرؤى والتصوُّرات، والبعدان في النص القرآني حاضران حضوراً لا يحكمه نظام بعينه، فهما لا يرتبطان ارتباطاً صريحاً بفترة دون أخرى من زمن الوحي ولا بسبب نزول واحد، ولكنَّ «التأويل» البشري تصرَّف، بواسطة مقولات بعينها أبرزها مقولات النسخ وتقديم عموم اللفظ على خصوص السبب...من أجل تغليب بُعد بعينه وتحويل الجهاد إلى حرب مقدَّسة مفتوحة ومعلنة ضدّ كلّ مختلف.

معجم الجهاد في القرآن:

ورد لفظ (الجهاد) في القرآن في واحد وأربعين موضعاً، جاء في سبعة وعشرين بصيغة الفعل، من ذلك قوله في التوبة73/9: «يا أيُّها النبي جاهد الكفار والمنافقين»، وجاء بصيغة الاسم في أربعة عشر موضعاً، من ذلك قوله في الممتحنة 1/60: «إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي»، كما ورد لفظ (الجهاد) في القرآن على ثلاثة معانٍ ارتبطت جميعها بـ«الآلة» التي يُجاهد بها، فهي إمَّا البيان والإقناع أو النفس والمال أو العمل الصالح، ورغم أنَّ القرآن لم يستعمل إطلاقاً لفظ «السيف» فإنَّ أغلب المفسّرين اعتبروا المقصود ممَّا نصَّ عليه من جهاد بالنفس والمال هو الجهاد بالسيف أو القتال الحربي، ولذلك ربطوا الجهاد بالقتال، وعدّوا الآيات التي جاءت في هذا المعنى كلها آيات تشرّع القتال الحربي القائم على استخدام السلاح.

أمَّا المعنى الأوَّل وهو الجهاد بالقول والبيان، فمنه قوله في الفرقان 52/25: «وجاهدهم به جهاداً كبيراً»، وفيها قال الطبري: «جاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله،

ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعه طوعاً وكرهاً، وبنحو الذي قلنا في «وجاهدهم به» قال أهل التأويل».[1] وقد أطلق المفسرون على هذا النوع من الجهاد «الجهاد بالحجَّة والبرهان». ولكن يلاحظ أنَّ هذا المعنى الأوَّل من معاني الجهاد قد أخضع لاحقاً للتصرُّف بالتقليص من مداه ودائرته عن طريق مقالة النسخ، خاصَّة والقول: «إنَّ الأمر بالقتال وإباحته في كلّ مكان وكل زمان ناسخ لجميع ما جاء في القرآن ممَّا فيه الصبر على الأذى من المشركين واللين لهم والصفح والإعراض عنهم والعفو والغفران لهم والجنوح لهم والجنوح للسلم إذا جنحوا لها».[2] وبمقالة النسخ قلص الفقيه من دائرة هذا المعنى الأوَّل الذي يجعل آلة مجاهدة المختلف هي الإقناع بواسطة البيان القرآني، وفي المقابل وسّع من دائرة المعنى الثاني، وهو الجهاد بالنفس والمال، من ذلك قوله في النساء95/4: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً»، فالمقصود بلفظ (الجهاد) في هذه الآية وفي غيرها من الآيات في معناها جهاد من يصنّفهم بكونهم كفاراً أو مشركين في ساحات القتال وبواسطة ما هو معلوم بالضرورة من الآلات الحربيَّة، ومن هذا القبيل قوله في الصفّ 11/61: «وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم». ونظراً لما شاع في كتب النسخ من كون آية السيف (التوبة5/9) وما جرى مجراها من آيات القتال قد نسخت كلَّ الآيات التي فيها دعوة إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وإلى عدم الإكراه في الدين وما جرى مجراهما من المعاني، لذلك ذهب المفسرون إلى أنَّ «أكثر لفظ (الجهاد) في القرآن جاء على حسب هذا المعنى»، وهو معنى الجهاد الحربي والقتال الموجّه ضدّ من لا يقبل الإسلام طوعاً.

أمَّا المعنى الثالث الذي أفاده لفظ الجهاد في السياق القرآني، فهو الجهاد بالعمل الصالح، من ذلك قوله في العنكبوت 6/29: «ومن جاهد فإنَّما يجاهد لنفسه». قال الفخر الرازي: ومثل هذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: «من عمل صالحاً فلنفسه» (فصلت46/41)، ويضيف «وفي الآية مسائل أوَّلها الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له».[3]

يبدو أنَّ هذا التمييز أوضح في كتب التفسير منه في القرآن، وهو تصنيف استخدم في التشريع، حيث اتخذه الفقهاء قاعدة لتحديد أحكام الجهاد، بما يرجح ما كان للمشغل التشريعي من أثر في توجيه فهم النص القرآني وفي تحويل وجهة ما جاء فيه من أقوال متعدّدة السياقات ومتنوعة الدلالات ومختلفة الأصناف وجهة تشريعيَّة.

1- الطبري، محمَّد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وخرّج أحاديثه محمود محمَّد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ج16، ص 281.

2- مرعي بن يوسف الكرمي (ت1033هـ): قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن، نسخة إلكترونية، ص28.

http://www.al-mostafa.info/data/arabic/depot/gap.php?file=000120-www.al- mostafa.com.pdf

3- الرازي، فخر الدين محمَّد بن عمر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 2004، تفسير سورة العنكبوت، ص29.

الجهاد والقتال والنفير في المدوّنة النصيَّة:

جاء لفظ الجهاد في القرآن في ستّ وعشرين موقعاً أو آية، توزع أكثرها على سور تصنف مدنيَّة:

البقرة (218)، آل عمران (142)، النساء (95)، المائدة (35)، الأنفال (في ثلاثة مواقع منها 72-74-75)، التوبة (في تسعة مواقع: 16، 20، 24، 41، 44، 73، 81، 86، 88)، النحل (110 مكيَّة)، الحج (78 مكيَّة)، الفرقان (52 مكيَّة)، العنكبوت (6، 69 مكيَّة)، محمَّد (31)، الحجرات (15) الممتحنة (1)، الصف (11)، التحريم (9).

بينما جاء لفظ القتال في القرآن في ثمانية وثلاثين موقعاً، موزعة على النحو التالي:

البقرة: في سبع آيات منها: (178، 190، 191، 193، 216، 244، 246)، آل عمران في خمس آيات: (13، 157، 158، 167، 195)، النساء في سبع آيات: (74، 75، 76، 77، 84، 89، 91)، الأنفال في ثلاث آيات: (17، 39، 65)، التوبة في ثماني آيات: (5، 12، 13، 14، 29، 36، 111، 123)، الحج (58)، محمَّد في آيتين: (4، 20)، الفتح (16)، الحديد (10)، الصف (4)، الممتحنة (8، 9).

أمَّا لفظ النفير، فإنَّه جاء في ستة مواقع، موزعة على النحو التالي:

النساء: (71)، التوبة في خمس آيات: (38، 39، 41، 81، 122).

وإذا أخذنا بترتيب كلٍّ من نولدكه وريجيس بلاشير لسور القرآن بحسب تاريخ النزول نتبيَّن:

ـ أغلب الآيات التي جاءت فيها ألفاظ الجهاد والقتل والنفير تنتمي إلى الفترة المدنيَّة التي تضمُّ السور من السورة الثالثة والتسعين إلى السورة السادسة عشرة بعد المئة،[4] حسب الترتيب المذكور،[5] وهي سور البقرة (السورة 93 في ترتيب نولدكه/ بلاشير)، الأنفال (97)، محمَّد (99)، آل عمران (100)، النساء (102)، الحج (109)، الفتح (110)، التحريم (111)، الممتحنة (112)، الحجرات (114)، التوبة (115)، المائدة (116).

بينما لم ترد هذه الألفاظ إلا في السور المكيَّة التالية:

4ـ بلغ عدد السور في المرجع المشار إليه 116 سورة بدل 114 على ما هو معروف في المصحف العثماني، بناء على التمييز في كلّ من سورتي العلق والمدثّر بين قسمين: أحدهما نزل في بداية الوحي، والثاني منهما نزل في مرحلة متأخرة من الفترة المكيَّة ذاتها.

5- Régis Blachère: Le Coran; traduction selon un essai de reclassement des sourates; Islam d'hier etd'aujourd'hui; Paris; G.P. Maisonneuve; 1948; Vol1; Introduction au Coran. p. 3-5.

- النحل (السورة 75 في ترتيب نولدكه/ بلاشير)، وتنتمي حسب هذا الترتيب إلى الفترة المكيَّة الثالثة التي يتكرَّر في سورها حثّ النبي على السعي من أجل توسيع مجال دعوته، وبالإخبار عن بعض الوقائع المقترنة بهذا المسعى.

- الفرقان (68) وتنتمي إلى المرحلة المكيَّة الثانية، وهي مرحلة تتَّسم باشتداد معارضة قريش للنبي، وبتشديد القرآن على إنكار أصنامها وعلى الدعوة إلى مقاومة الشرك.

- العنكبوت (83 حسب ترتيب نولدكه/ بلاشير) وتنتمي إلى المرحلة المكيَّة الثالثة، حيث التركيز على العمل من أجل توسيع الدعوة وعلى بذل الجهد في سبيل ذلك.

وبهذا يبدو التركيز على مبدأ بذل الجهد والنفس والمال من أجل نشر الدعوة ونصرتها، وردّ الأذى الذي ألحقه أو قد يلحقه المشركون بحملة الدعوة وبالمؤمنين بها، يبدو أمراً مرتبطاً زمنياً إمَّا بالمرحلة الأخيرة من الفترة المكيَّة، وقد بدأت الدعوة تخرج للعلن وتثير ردود فعل عنيفة من قريش ويضيق فيها الخناق على الرسول، أو هي مرتبطة بالفترة المدنيَّة. وفي الحالتين يبدو تبلور مفهوم الجهاد بصفته نهجاً في نشر الدعوة وفي الحفاظ على وجود الجماعة الناشئة والدفاع عن مشروعها وليد مسار يشقّ النص القرآني ويشكّل بنيته، وهو مسار التحوُّل من نص ديني بالمفهوم المباشر للدين بصفته علاقة فرديَّة مدخلنة بين الإنسان والمتعالي إلى نصٍّ «تنظيمي» منغرس في واقع قائم؛ يبشّر بواقع بديل تولى الإشارة إلى جملة من القيم ومن التصوُّرات التي يحتاجها في هذا الانتظام الجديد.

وإذا عدنا إلى النص القرآني، وجدنا الجهاد المذكور في آيات السور المكيَّة مقترناً خاصة بالانتساب إلى النفس كما في سورة العنكبوت (29 /6): «وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»، فالجهاد إذن غير موجَّه إلى طرف واقع خارج حدود النفس ولا هو مطلوب من أجل نفع يحصل لمن هو خارجها، حتّى ولو كان الله نفسه الذي ما فتئ يكرّرَ أنه في غنى عن العالمين، ممَّا يرجّح أنَّ المقصود به هو كلّ أعمال التطهُّر التي تحتاج من المرء جهداً كبيراً حتى يحرّر بها نفسه من آثار المنظومة الدينيَّة والقيميَّة والاجتماعيَّة التي كان ينتسب إليها، فيعدّها بذلك لتقبل المنظومة الجديدة ولتحمّل مسؤوليَّة الدين الجديد، وتعبّر آيات سورة العنكبوت المكيَّة عن هذا المفهوم أحسن تعبير، إذ أكَّدت في الآية السادسة المذكورة سابقاً على أنَّ الجهاد عمل مكتفٍ بذاته غير موجّه إلى أحد خارجه، وأنَّ المعنيَّ به وحده هو فاعله، ومادام الأمر كذلك فالجهاد حسب رأينا عمل مدخلن غايته الأكبر هي التطهّر من آثار الشرك والاستعداد لتقبل عقيدة التوحيد، ويتأكد هذا الارتباط بين الجهاد وسيلة فرديَّة والتطهّر من آثار الشرك، فالهداية إلى سبيل الله غاية له في هذه الآية: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» (العنكبوت 69/29). إنَّ انتماء هذه السورة إلى المرحلة الثالثة من الفترة المكيَّة يؤكّد هذا الفهم، فهي مرحلة اشتدّ خلالها اضطهاد قريش

ومحاربتها للنبي ولمن اتبع دعوته فاحتاجوا فعلاً إلى بذل جهد كبير من أجل التمسُّك بعقيدتهم الجديدة ومن أجل حفظ النفس من التأثير الذي يمكن أن تؤدي إليه الضغوط الماديَّة من قريش والنفسيَّة التي تمارسها عقيدة الآباء عند الخروج عليها. وهو ما تؤكّده السورة نفسها في ما دعت إليه من قيمة مبدئيَّة هي الإحسان إلى الوالدين وفي ما استثنته في حال لاقى الوالدان جهاد ابنهما في سبيل عقيدة التوحيد بـ«جهاد» آخر هو جهادهما من أجل استرجاع الولد الخارج على عقيدتهما: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».(العنكبوت8/29)

للجهاد في هذه المرحلة المكيَّة بعد ثانٍ يتمثل في بذل الجهد من أجل الإقناع بعقيدة التوحيد يُعتَمَد فيه على «وسيلة» واحدة هي القرآن، ففي خطاب موجّه إلى الرسول في سورة الفرقان التي تنتمي من جهة تاريخ نزولها إلى المرحلة المكيَّة الثانية، دعاه الله إلى أن يتخذ القرآن، بما هو «فرقان» يفرّق بين الحق والباطل وبين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد، مرجعاً له في مجاهدة المشركين من أجل حملهم بالحسنى على الاقتناع بدعوته. «فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا».(الفرقان 52/25) أخبر الله في هذه السورة بالكثير من مظاهر الاضطهاد والتضييق والنبذ التي كان الرسول ضحيَّة لها في دعوته إلى قومه وكان من اتبعوه في الوضع ذاته، وفي هذا السياق جاءت الدعوة إلى مجاهدتهم بالقرآن بوصفه البيان المفرّق بين الحق والباطل. ويتأكّد هذا المعنى لجهاد يدلّ على ما يبذل المرء من الجهد في التمسك بعقيدة التوحيد بعد أن هدي إليها ضدّاً على الذين يجاهدون بدورهم من أجل ردّه عنها واستعادته إلى عقيدة الآباء، أو من أجل الإقناع بواسطة البيان القرآني لترك الشرك واستبداله بالتوحيد، لأنَّه الدين الحقّ في سورة النحل، وهي كذلك من السور المكيَّة. وفيها إخبار بفصول أخرى من الصراع بين النبي وأوائل من آمن برسالته من جهة، والذين صدّوا عن الله وما دعاهم إليه وبشّرهم به في تنزيله من جهة أخرى. وفي الآية التي ورد فيها ذكر لفظ «الجهاد» اختزال لذلك الصراع: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».(النحل110/16) ففيها إشارة إلى حالات تراوحت بين الافتتان والصبر والجهاد، وهي حالات أسندها الخطاب القرآني إلى من كانوا ضحيَّة ذلك الاضطهاد، حتّى كان منهم من افتتن في دينه وأكره على التظاهر بالرجوع إلى الكفر بعد إيمان: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». (النحل 105/16)

إذن تشترك السور والآيات القرآنيَّة في الدلالة على أنَّ المقصود بالجهاد هو بذل الوسع والطاقة من أجل التطهُّر من آثار عقائد الشرك وللخلاص من تأثير المشركين واضطهادهم في سبيل ضمان الاستعداد الذاتي لاعتناق عقيدة التوحيد التي تمثل السبيل إلى الله، وفي سبيل الاتجاه نحو الله بدل الخضوع لما هو موروث عن الآباء من عقائد الشرك، وهو ما يسمح لنا بالقول إنَّ هذا الضرب من الجهاد إنَّما هو حركة «مدخلنة» نابعة من الذات ومتجهة إليها، هدفها الأساسي وضعها في السبيل نحو الله، أي نحو عقيدة التوحيد

ونحو ما يقترن بها من أخلاقيَّات تحرّر الذات المؤمنة من آثار السائد بعباداته الموسومة بالشرك والوثنيَّة والتحريف، وبنظمه الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة المتهمة بالنقص والفوضى وفقد الشرط الإنساني، حركة الذات في سعيها إلى إدراك مستوى من الانسجام مع ما تبشّر به الرسالة الجديدة يضمن لها «الفوز» في الدنيا و«الخلاص» في الآخرة. ومن الملاحظ أنَّ هذا المفهوم لا يخصُّ الإسلام ورسالته ونبيّه والمؤمنين به فحسب، بل هو مفهوم ينتظم تاريخ النبوَّات والرسل في سياق الأديان الإبراهيميَّة التوحيديَّة، حتى إنَّ الجهاد ليبدو مكوّناً ثابتاً من مكوّنات عقيدة الميثاق.

أمَّا في السور والآيات المدنيَّة، فالملاحظ أنَّ مفهوم الجهاد صار مقترناً بدلالات أخرى يبدو للتحوُّلات التي طرأت على الجماعة بعد هذا الانتقال في المكان من بيئة معادية إلى بيئة يتوفّر فيها مستوى من المناصرة ملائم لتشكّل جماعة فاعلة ومنسجمة، ونواة لنظام جديد مناسب للتوسيع من مجال الدعوة وللخروج بها من محليَّة حصرتها في المجال القرشي إلى آفاق مفتوحة على كلّ الذين تستهدفهم في توجّهها إلى العالمين.

في المدوّنة القرآنيَّة، جاء لفظ الجهاد مقترناً بحقل معجمي يشمل عبارة «سبيل الله» خاصَّة، وهي عبارة تردَّدت إحدى عشرة مرَّة في النصّ مقترنة بلفظ الجهاد أو أحد مشتقاته، هذه السبيل هي التي على المؤمن أن يجاهد ليضع نفسه فيها وعلى طريقها. وهو في هذا المستوى لا يواجه نفسه وما علق بها من آثار الشرك فحسب، كما كان الأمر في ما سبق، بل هو محتاج إلى أن يواجه طرفاً خارجيًّا هو ذاك الذي يأتي هو الآخر مقترناً بذكر عبارة «سبيل الله» ويحدّده النص بكونه الذي «يصدّ عن سبيل الله»، وإذا نظرنا في عبارة «سبيل الله» في سياقها القرآني وجدناها مرتبطة بعبارة ثانية كثيراً ما تتردَّد معها هي الأخرى، وهي عبارة «الصراط المستقيم»، كما في الآية: «إِنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». (الأنعام 6 /153) أمَّا هذا الصراط المستقيم الذي هو سبيل الله فيأتي ضبطه في موقع آخر من السورة نفسها حيث تأتي تمييزاً له عبارة «الدين القيّم» كما في قوله: «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». (الأنعام6/ 161) وبهذا يتشكل الحقل المعجمي من الوحدات التالية المترابطة فيما بينها ترابطاً علائقيًّا: «الجهاد، سبيل الله، الصراط المستقيم، الدين القيّم، التوحيد»، ويختزل هذا الحقل المعجمي المفهوم القرآني للجهاد باعتباره سلوكاً على المسلم أن يبذل فيه الجهد حتى يسلمه إلى السبيل نحو الله، لأنَّ هذه السبيل هي الصراط المستقيم أو هي الدين القيم وهو التوحيد. وبهذا يظلُّ مفهوم الجهاد في القسم المدني من القرآن مماثلاً لمفهومه في القرآن المكّي. إلَّا أنَّ أوَّل عمليَّة تأويليَّة حدثت منذ حياة الرسول تمثلت في ربط الجهاد بالقتال والنفير بقرينة لغويَّة هي ربط الجهاد بلفظ «النفس»، وهو ربط استند خاصَّة إلى آيات سورة التوبة كما في الآية: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». (التوبة 41/9) فالربط بين الأمر بالنفير والجهاد والأنفس والأموال أدَّى إلى اعتبار الجهاد معادلاً دلاليًّا للقتال، بقرينة أنَّ المجاهدة بالنفس

تفهم على أنَّها التضحية بها وبذلها في سبيل نصرة الدين. ويبدو أنَّ لسورة التوبة وضعاً مخصوصاً في توجيه فهم الأجيال اللاحقة، سواء بخصوص مفهوم الجهاد أو بخصوص الربط بينه وبين القتال. ففي هذه السورة ذكر لفظ الجهاد في تسعة مواقع منها وذكر لفظ القتال في ثمانية مواقع، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما هو رائج في الروايات الإسلاميَّة من قول إنَّ هذه السورة هي آخر ما نزل من القرآن، وعليه جاءت في ترتيب النزول المعتمد رسميًّاً من الأزهر في المرتبة قبل الأخيرة ولا تأتي بعدها إلا سورة النصر، ولها المرتبة نفسها في ترتيب كلٍّ من نولدكه وبلاشير، أمَّا ما يأتي بعدها فسورة المائدة. وترجح هذه الشهادات أنَّ السورة نزلت في سياق تاريخي اقترن بانتصار الرسول وجماعة المسلمين على قريش بعد فتح مكة، وقد يكون وضع الانتصار أحد العوامل التي تفسّر احتداد الخطاب القرآني في تقسيم المجموعات البشريَّة الموجودة ضمن مجاله الجغرافي وفي تحديد الأسلوب المناسب للتعامل مع كلّ مجموعة ولتعامل المجموعات في ما بينها وللمصير الأخروي الذي ينتظرها. وهذه المجموعات هي:

- مجاهدون منخرطون في سبيل الله يسيرون على صراط التوحيد المستقيم بفضل ما يبذلون من جهد في التقيّد بأوامر الله ونواهيه، وهؤلاء موعودون بالفوز في الدنيا والخلاص في الآخرة بنعيم مقيم ينتظرهم.

- منافقون يقعدون عن هذا الجهاد فيظهرون الإيمان قولاً ولا يجاهدون في السبيل إلى الله فعلاً، ويجتمع تحت هذه الصفة الأعراب والقاعدون عن مقاتلة المشركين خوفاً أو تخاذلاً أو كذباً ونفاقاً.

- مشركون وكفَّار يصدّون عن سبيل الله، وبهؤلاء يرتبط ذكر القتال حيث تغدو مقاتلتهم وسيلة من وسائل الجهاد في السبيل إلى الله. وفي هذا السياق يكون الجهاد سبيلاً للدفاع عن النفس الواقعة ضحيَّة الصدّ عن تلك السبيل.

وبهذا يضع القرآن حيزاً يفصل بين الجهاد سلوكاً فرديًّاً مدخلناً، والقتال بوصفه فعلاً وردّ فعل موجَّهاً نحو مجموعة معيَّنة هي تلك التي تظهر العداء فعليًّاً ضدّ المجاهدين بمقاتلتهم كذلك، ليكون القتال في هذه الحال ردًّاً للعدوان الرامي إلى الصدّ عن سبيل الله.

ولا يسمح النصُّ القرآني في ذاته بالدمج بينهما أو باعتبار أحدهما مرادفاً للآخر إلَّا في آيات قليلة يجوز فيها حمل لفظ الجهاد على الدلالة على القتال، وهو حمل غير ممكن إلا بقرينة على غرار ارتباط ورود لفظ الجهاد بلفظ النفير وهو من مقتضيات الحرب والقتال. فماذا حدث إذن حتى يحمل اللفظان في كلّ الأحوال ودون شروط على الدلالة نفسها؟ ما الذي حصل في التاريخ ليصبح الجهاد في الفهم الإسلامي قتالاً غير مشروط ضدّ كلّ مختلف عامَّة وفي العقيدة خاصَّة؟ ما العوامل التي تحكَّمت في الفهم والتأويل اللذين

حوَّلا الجهاد عن دلالته القرآنيَّة إلى دلالة بشريَّة-تاريخيَّة أظهرت الجهاد معادلاً موضوعيًّاً لقتال مطلق من كلّ شرط ضدّ كلّ مختلف في العقيدة؟

من القرآن إلى السيرة والحديث أو المسار العنيف:

ساهم فهم القرآن وتأويله في ضوء وقائع السيرة النبويَّة وبما روي في سياقها من أقوال الرسول في توجيه فهم المسلمين، بكلّ مذاهبهم، للقرآن على المدى الطويل وإن تفاوتت مستويات الربط ومضامين الروايات السيريَّة والحديثيَّة التي ربط بها فهم القرآن وتفسيره. أمَّا روايات السيرة نفسها، فإنَّها اتجهت اتجاها «قتاليًّاً» منذ أن ربطت بالمغازي، وكأنَّ «الغزو» فعل ملازم للسيرة النبويَّة، أو كأنَّ في هذا الربط تسليماً بأنَّ «الغزو» هو جوهر الفعل النبوي. فهو العمل الذي يظهر من خلاله مقدار التضحية التي بذلها الرسول من أجل تبليغ الرسالة التي كلّف بتبليغها ومقدار تكريسه ذاته لنشر هذه الرسالة إلى العالمين طبقاً لما كلّفه به الله. في ضوء هذا التصوُّر ارتفع في فهم الأجيال الأولى من مفسّري القرآن ومن مدوّني السيرة الفارق الدلالي بين الجهاد والقتال من جهة، واتسعت دائرة المستهدفين بالقتال لتشمل أصنافاً من «الكفّار» من جهة أخرى. وقد كان للأحاديث النبويَّة التي جمعت لاحقاً في أبواب أو كتب قائمة بذاتها هي «كتب الجهاد»[6] دور في تثبيت هذا الاتجاه وفي الارتفاع بالجهاد -في مفهومه القتالي- إلى مرتبة تضاهي مرتبة الفرائض الدينيَّة، وهو ما يفسّر ترتيبه مباشرة بعد باب الحجّ في مدونات الحديث أوَّلاً، ثمَّ في المدونات الفقهية بعد ذلك جرياً على هذا النهج. ويأتي عادة على رأس هذا الباب باب الترغيب في الجهاد.[7] أمَّا إذا تطرَّقنا إلى مضامين هذه الأحاديث، فإنَّنا لا نقف فيها على أيّ تمييز دلالي ولا حكمي بين الجهاد والقتال، وأنَّ الغالب فيها استعمال لفظ الجهاد مقترناً بعبارة في سبيل الله، وهو ما يؤدّي إلى تصعيد هذا الفعل في مرتبة التعالي إلى درجة الارتقاء به إلى مرتبة تبدو في كثير من الأحاديث أرقى من مرتبة الفرائض الدينيَّة وحتى من أركان العقيدة، ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال حديث جاء فيه أنَّ «الجهاد في سبيل الله» يأتي على رأس الأعمال التي «يرفع بها العبد مئة درجة في الجنَّة ما بين كلّ درجتين كما بين الأرض والسماء».[8] ولم يكن هذا العمل المتمثل في التسامي بقيمة الجهاد وتصعيدها بجعله في مرتبة الفرائض الدينيَّة وتحويله من ثمَّة إلى مكوّن من مكونات عقيدة التوحيد، والذي افتتحته في الحقيقة سورة التوبة منفصلاً عن السياقات التاريخيَّة التي حصل في إطارها وبتأثير من إكراهاتها، فقد كان احتداد الصراع بين الطرفين المعنيين بالجهاد/ القتال فاعلاً

6- انظر على سبيل المثال: مالك بن أنس، الموطّأ، تصحيح محمَّد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، كتاب الجهاد ج2، ص ص 443-471، ويأتي هذا الكتاب بعد كتاب الحج وقبل كتاب الأيمان والنذور.

7- يلاحظ أنَّ مالكاً جعل للترغيب في الجهاد بابين في كتاب الجهاد، هما الباب الأول والباب الثامن عشر، المصدر السابق، ص 443، ص 364.

8- مسلم، الصحيح، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط1، 1998، ج3، ص255، حديث رقم 1884. ولم يرد هذا الحديث في موطّأ مالك ولكن جاء فيه حديث آخر لا يختلف كثيراً من جهة هذه الدلالة، جاء فيه: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم الذي لا يفت عن صلاة ولا صيام حتى يرجع"، الموطّأ، م. س.، ج2، ص 443.

ومفعولاً دافعاً في اتجاه تقديم هذا الفهم على فهم آخر ممكن يسمح به النص، هو الفهم الذي أسلفنا الإشارة إليه. وقد بدأ هذا المسار العنيف منذ الفترة المكيَّة وأدَّى إلى إخراج النبي وجماعته من مكّة وأجبرهم على ترك أهلهم وأموالهم، واستمرَّ حتى بعد الانتقال إلى يثرب وظهر خاصَّة في صدّ الجماعة عن بلوغ مكَّة للقيام بشعيرة من شعائر الإسلام المفروضة وهي الحج، ثمَّ اتخذ بُعداً آخر عندما اشتمل الصدَّ عن طرق التجارة، فلم تعد تجارة قريش آمنة، فهي إذن سلسلة من الأفعال وردود الأفعال العنيفة أدت إلى بروز طرفين متعاديين، وكان من البديهي أن يستعمل كلّ منهما ما هو متاح إليه من أسلحة في ذلك الصراع، فكان التسامي بالقتال، وهو في الأصل مكروه، [9]من أجل جعله في مرتبة الجهاد ومن ثمَّة شرعنته، بل وإسباغ القداسة عليه. وهكذا كان لكتب السيرة والحديث دور مؤسّس في إلغاء التمييز بين الجهاد والقتال من جهة، وفي تصعيد القتال إلى مرتبة الفرائض الدينيَّة من جهة أخرى، وفي إتاحة الفهم القابل لتوسيع دائرة المستهدفين بالجهاد/ القتال من جهة ثالثة، وهو ما سينهض به الفقيه. ذلك أنَّ كتب السيرة والمغازي ومدّونات الحديث الأولى لم تلبث أن تحوَّلت إلى مرجع يعتمد في تحديد أحكام القتال وسلوك المسلمين في الحرب، ولم تتوقف عند وظيفتها الأولى، وهي السعي إلى تبرير الأحداث التي وقعت أثناء الغزوات، بل سريعاً ما تحوَّل ذلك التبرير إلى تقنين باتخاذ الوقائع والأحاديث أدلة على أحكام الحرب والجهاد، عليها اعتمد عموم الفقهاء أكثر من اعتمادهم على النَّصّ القرآني.

أحكام الجهاد الفقهيَّة أو مأسسة الجهاد/ القتال:

ـ لحظة الشافعي: من الجهاد إلى القتال، ومن المقيد إلى المطلق.

لم يقتصر دور الشافعي (ت204هـ) على استكمال عمل مأسسة الفقه الإسلامي بجمع مختلف ما تشكّل قبله من عناصر عمليَّة ونظريَّة في منظومة يتعاضد فيها الفقه بأحكامه العمليَّة الفرعيَّة مع أصوله المتمثلة في منهجيَّة حدَّد فيها الشافعي مصادر الأحكام ومنهجيَّة استنباطها وضبطها، بل كان لهذا الفقيه دور تأسيسي كذلك في ما يتعلق بأحكام الجهاد، إذ لم يهتمّ الفقهاء قبله بمبحث الجهاد إلا اهتماماً محدوداً تركّز على «أخلاقيَّات» القتال وعلى الحدود التي يجب على المسلمين التقيّد بها أثناء سعيهم إلى نشر الإسلام، وقد ظلّ الاحتكام إلى مبدأ مجاهدة المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله مرجعاً يحتكم إليه أكثرهم، مثل الأوزاعي ومالك[10]في تفصيل أحكام الجهاد، حتى أتى الشافعي فاستبدل هذا المبدأ بمبدأ آخر سيكون له لاحقاً دور فاعل في التسوية بين الجهاد والقتال، وفي جعلهما واجباً في كلّ الأحوال، وبمقتضى الشرك نفسه، أو حتى بتهمة

9- جاء في البقرة216/2 "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ".

10- عارض الإمام مالك قتال الفجأة (الهجوم المفاجئ على العدوّ) وقتال البيات (مهاجمة العدو ليلاً)، لأنَّ القتال مشروط بالجهاد بالبيان وبدعوة الناس للإسلام قبل الهجوم عليهم طبقاً لما أقرّه القرآن نفسه، كما عارض الاستقتال، أي قتل العدو قبل الحرص على إقناعه بالدعوة، لأنَّ قصد الإسلام هداية الناس إلى سبيل الله، أي إلى التوحيد، وليس قتلهم.

التحريف بالنسبة إلى أهل الكتاب ممَّن لم ينصّ القرآن مطلقاً على كونهم مشمولين بالجهاد، وليس بمقتضى دفع الذين يصدّون المؤمنين عن سبيل الله.

خصّص الشافعي للجهاد/ القتال أبواباً في مؤلفه «الأم»[11]، ويكفي أن نعتمد على المعجم الذي استخدمه الشافعي في هذه الأبواب حتى نتبيَّن وجوهاً من الدور الذي أدّاه في مأسسة الجهاد وفي تحويله إلى فرض قتالي غير مقيَّد بشروط، فقد استخدم مثلاً لفظ «ابتدأ» وما يشتق منه مثل «ابتداء» وذلك في سياق الحديث عن «أطوار» من تاريخ تقبّل المؤمنين للدعوة، يقول: «فأذن لهم بأحد الجهادين: الهجرة قبل أن يؤذن لهم بأن يبتدئوا مشركاً بقتال، ثمَّ أذن لهم بأن يبتدئوا المشركين بقتال (ويستدلّ للبرهنة على هذا الفهم بالحج /39-40)، وأباح لهم القتال بمعنى أبانه في كتابه فقال عزَّ وجلَّ (واستدل بالبقرة2/190-191)»[12]، وبهذا المعجم رسم الشافعي مساراً مبدؤه جهاد لا يُبتَدَأ فيه بأحد، فهجرة يعتبرها أحد الجهادين، فجهاد يبتدئ فيه المشرك، فقتال، والقتال يتحوَّل إلى حكم نهائي يستهدف ابتداء كلّ مشرك، والجهاد طريق يرسم علاقة المسلمين بغيرهم وسيلته النهائيَّة هي القتال. ومن ثمَّة لم يبقَ للفقيه غير تحديد الأحكام الفرعيَّة التي تنظم هذا القتال، وهي أحكام ترتبط بدورها بمعجم حقله الدلالي الرئيس عسكري-حربي، ينحصر على إثرها تعريف الجهاد في قتال الكفار تعريفاً اقتضى تقسيم المجال الجغرافي إلى دار إسلام ودار حرب، أو دار إيمان ودار كفر، كما اقتضى إقرار علاقة وحيدة بينهما هي العلاقة الحربيَّة. وهو ما يدلُّ عليه قوله: «ولمَّا مضت لرسول الله مدَّة من هجرته أنعم الله فيها على جماعات باتّباعه حدثت لهم بها مع عون الله قوَّة بالعدد لم تكن قبلها ففرض عليهم الجهاد بعد أن كان إباحة لا فرضاً، فقال تبارك وتعالى (البقرة2/216، التوبة9/111، البقرة2/244، الحج /68، محمَّد/4، التوبة9/41-42)، فأبان في هذه الآيات أنَّ عليهم الجهاد فيما قرب وبعد».[13]

إنَّ أبرز ما نحتفظ به من تحليلات الشافعي واستدلالاته بشأن الجهاد ثلاث نتائج كبرى نراها قد أحدثت تحوُّلاً جوهريًّا انتقل به المسلمون من الوضع القرآني للجهاد إلى الوضع التأويلي، ومن ثمَّة التاريخي: تحويل الجهاد إلى قتال، وانقلاب الإباحة إلى فرض، والتحوُّل من جهاد الصدّ، صدّ العدوّ إذا ما ابتدأ بصدّ المسلمين عن سبيل الله، إلى جهاد الابتداء بما يعنيه ذلك من ربط الجهاد/ القتال بالشرك أو الكفر إطلاقاً وبالمشركين أو الكفار في مطلق الأحوال، وليس فقط في حال الدفاع عن النفس كما جاء في السياق القرآني.

11- الشافعي، محمَّد بن إدريس (ت204): الأمّ، تحقيق وتخريج رفعت فوزي عبد المطلب، كتاب الجهاد والجزية، ج5، ص ص 362-592، باب في الجزية، ج8، ص ص 625-634، 690، باب قتل الأسارى والمفاداة بهم والمنّ عليهم، ج10، ص 64. باب قتال أهل البغي وأهل الردَّة، ج5، ص ص 520-544.

12- المصدر السابق، ج5، ص 365.

13- المصدر السابق، ص 366-367.

ـ لحظة ابن تيمية: من قتال ضدّ دار الكفر إلى قتال داخل دار الإسلام:

من المؤكّد أنَّ للسياقات التاريخيَّة التي ينشأ في إطارها خطاب ما أثراً لا تخطئه عين القارئ، وهذه القاعدة لا ينفكّ منها أيّ نوع من أنواع الخطابات، بما فيها الخطابات الدينيَّة التي تصنف نفسها ضمن «المتعالي» المنفصل عن التاريخ وعن ملابساته المرتهنة إلى الزمان والمكان، ومن باب أحرى تلك التي ينتجها البشر على خطاب ديني تفسيراً له وتأويلاً أو استنباطاً منه أو استدلالاً به أو تشريعاً منه. وبناء على ذلك ذهب أكثر الذين اعتنوا بخطاب ابن تيمية في موضوع الجهاد إلى ربطه بالسياق التاريخي الذي عاصره، وهو سياق دالت فيه دولة المسلمين فأخذت تتقلّص جغرافيًّا، وفقدت ما كان لها من سلطان على سائر الدول بعد أن ظهرت دول وقوى أخرى أعلنت منافستها لها ودخلت معها في حروب كانت دوافعها الحقيقيَّة جغرا-سياسيَّة رغم اتخاذها الدين غطاء، على نحو ما كان سائداً في أكثر من مكان من العالم آنذاك.

عاصر ابن تيمية استيلاء المغول على بغداد وزحفهم إلى الشام ومصر وشارك في قتالهم، كما قاتل بعض «المسلمين» من طوائف الشيعة الإسماعيليَّة. ولم يكتفِ بذلك بل عمد إلى تحويل ما قام به إلى قاعدة حكميَّة عندما أفتى بوجوب مقاتلة كلّ طائفة «ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنَّه يجب قتالها حتى يكون الدين كلّه لله»[14]، وعندما استعرض الرجل نماذج من الشرائع التي قد تمتنع عنها طائفة من الطوائف، وعليه يحلّ قتالها، ذكر ما يدلّ دلالة واضحة على أنَّه يدرج ضمنها كلّ تلك التي اعتبرها «مخالفة لشريعة رسول الله وسنّته وما عليه جماعة المسلمين»[15] وقد ذكر منها بالاسم الخوارج والخرميَّة والقرامطة والباطنيَّة، ومعنى هذا أنَّه يسوّي في الحكم بين الكفار وهؤلاء في كونهم جميعاً مستهدفين بالقتال. إنَّ دائرة هؤلاء الذين استحلّ دماءهم بالقتال، على اعتبار أنَّهم داخلون في دائرة الكفَّار، تبدو واسعة اتساعاً يتجاوز الطوائف من غير أهل السنَّة والجماعة لتشمل كلّ الذين أطلق عليهم أهل البدع والمتصوّفة، إذ ليس الكفر الذي استحقّ لأجله النصيريَّة والرافضة وغيرهما القتال بأكثر خطراً من كفر كلّ المبتدعين، «فليس هذا مختصَّاً بغالية الرافضة، بل من غلا في أحد من المشايخ وقال إنَّه يرزقه أو يسقط عنه الصلاة، أو أنَّ شيخه أفضل من النبي ...، أو أنَّه مستغنٍ عن شريعة النَّبي، أو أنَّ له طريقاً غير شريعة النبي، أو أنَّ أحداً من المشايخ يكون مع النبي، كما كان الخضر مع موسى. وكلُّ هؤلاء كفَّار يجب قتالهم بإجماع المسلمين، وقتل الواحد المقدور عليه منهم».[16]

من الواضح أنَّ الآليَّة الرئيسة التي أتاحت لابن تيمية توسيع دائرة المستهدفين بالجهاد/ القتال هي آليَّة التكفير. فقد انطلق ممَّا أصبح مكتسباً ومثبّتاً بسلطة الفقهاء وسلطة التكرار معاً وضمنه المبدأ الذي ربط

14- ابن تيمية، تقي الدين: فقه الجهاد، ص 95.

15- المصدر السابق نفسه.

16- المصدر السابق، ص 100.

الجهاد بالشرك/ الكفر، واعتبر أنَّ الكفر في حدّ ذاته يستوجب القتال بداءة، وكان لزاماً لتوسيع دائرة هؤلاء المستهدفين من توسيع دائرة التكفير نفسه، والنقلة التي أحدثها ابن تيمية تتمثل في كونه لم يحصر الكفر خارج دائرة الإسلام، كما ينصُّ القرآن صراحة، بل إنَّه جلبه إلى داخلها وظلَّ يوسِّع فيه حتى شمل كلّ مخالف لما سمَّاه عقيدة أهل السنَّة والجماعة. أفلا يفسّر هذا بوضوح الأسباب التي لأجلها ما يزال ابن تيمية مرجعاً أساسيًّاً لكلّ الجماعات التكفيريَّة في عصرنا؟

فلا عجب إذن أن يصبح ابن تيمية المشرّع الفعلي لعقيدة الجهاد في الماضي، وعرَّاب الجماعات «الجهاديَّة» التي ترفع اليوم لواء التكفير، كما رفعه ابن تيمية في وجه الغالبيَّة من المسلمين ممَّن يعدُّونهم محرّفة ومبتدعة، والمثل الأعلى الذي تقتدي به في ما تقوم به من الأعمال العنيفة والإرهابيَّة التي يصدق عليها توصيف الجهاد كما عرّفه ابن تيمية وبذل جهداً لشرعنته فعلاً وقولاً. ولعلَّ الحرج الكبير الذي تسبّبه هذه الفتاوى للضمير المسلم إزاء العالم من جهة، وما أدّى ويؤدّي إليه الأخذ بها اليوم من جرائم إرهابيَّة ذهب ضحيتها أبرياء من أديان مختلفة، بما في ذلك من الإسلام نفسه من الأسباب التي دعت أزيد من أربعين عالماً من مختلف بلدان العالم الإسلامي إلى الاجتماع في مؤتمر بهدف «إبطال فتوى ابن تيمية في التكفير والجهاد»، معتبرين أنَّ هذه الفتوى قد أخرجت من سياقها وأنَّ السياق الراهن لم يعد متناسباً بالمرَّة مع ما جاء فيها، على اعتبار أنَّه سياق اختصَّ «بظهور الدول المدنيَّة التي تحمي الحقوق الدينيَّة والعرقيَّة والقوميَّة اقتضى إعلان العالم كلّه كمكان (كذا) للتسامح والتعايش السلمي بين جميع الفصائل والجماعات الدينيَّة».[17] وقد حرص المؤتمر على الخروج بفتوى تنصُّ على أنَّه يحرّم على أيَّة جماعة وأيّ فرد أن يقرّرا بمفردهما الجهاد، وأنَّ قراراً من هذا النوع يعود إلى الدول وحدها.

الجهاد بين الإسلام الإصلاحي والإسلام السياسي-الجهادي:

شهد مفهوم الجهاد خلال الفترة الحديثة والمعاصرة تحوُّلات جوهريَّة يمكن حصرها في مسارين:

- مسار فكري إصلاحي شهد خلاله المفهوم، شأنه في ذلك شأن كثير من مفاهيم الفكر الإسلامي، مراجعات هامَّة يحكمها الأفق النهضوي بمطالبه الإصلاحيَّة والتجديديَّة الرامية إلى التخلص من آثار عصور الانحطاط، وإعادة عقد الصلة بما قدّره المفكرون من عوامل النهضة والتقدم والمدنيَّة.

- مسار سياسي/ حركي ارتبط بجماعات الإسلام السياسي التي ارتبطت بمطلب الجهاد حتى سمّيت أيضا حركات الإسلام الجهادي، وقد شكَّل ظهور جماعة الإخوان المسلمين بمصر سنة 1928 نواته الأولى.

17- موقع قناة "العربيَّة" http://www.alarabiya.net/articles/2010/03/31/104561.html بتاريخ الأحد9 ذو القعدة 1431هـ - 17 أكتوبر 2010م 30 :21 GMT - 00: 30 KSA

من جهة أخرى شهدت هذه المرحلة جملة من العوامل التي كان لها أثر مباشر أو غير مباشر في تشكيل تصوُّرات جديدة بشأن مفهوم الجهاد. من بينها انفجار مركزيَّة المعرفة الدينيَّة بخروج التفكير في الموضوع الديني من الاحتكار اللَّاهوتي ليصبح موضوعاً مشاعاً بين مختلف العلوم الإنسانيَّة، وليقتحم المفكر والمثقف مجال التفكير في الدين وقضاياه، ففقد بذلك الفقيه و«عالم الدين» ما كان يحتكره من معرفة دينيَّة. فضلاً عن ذلك شهد السياق المعرفي العام تعرُّف الفكر العربي والإسلامي إلى جملة من التصوُّرات الحديثة ذات الصلة بمفاهيم المواطنة والفرد والحقوق والحريَّات الفرديَّة، ومن بينها الحق في حريَّة الضمير، وهي مفاهيم خلّفت أثراً في هذا الفكر سيكون له وقع على مفهوم الجهاد كما فكّر فيه روّاد الإصلاح الديني. أمَّا السياق السياسي فإنَّه شهد، مع انهيار «الخلافة»، تبلور «الدولة القوميَّة» واكتمال مقوّماتها، ومن ثمَّة بروز مبدأ الانتماء إلى الوطن محدّداً هامَّاً من محدّدات الهويَّة إلى جانب الانتماء الديني.

انطلاق الفترة الحديثة وتأثيراتها: انفجار مركزيَّة المعرفة وظهور العلوم الإنسانيَّة وعلوم الأيان، فقدان رجل الدين الاستئثار بالمعرفة الدينية، ظهور الدولة، ظهور الدولة المدنيَّة الحديثة، ظهور تصوُّرات وقناعات جديدة تتعلق بحقوق الأفراد وبموقع الدين من هذه الحقوق.

بفعل هذه المؤثرات وغيرها انطلق المشروع الإصلاحي مع مطلع العصر الحديث في محاولة لاستعادة المفاهيم القرآنيَّة الأصيلة والعمل على تخليصها من آثار الفهم البشري التي تراكمت عليها، ومن بين تلك المفاهيم ذات الصلة بمفهوم الجهاد عدم الإكراه في الدين، إذ لا أحد له سلطة إجبار غيره على دين بعينه.[18] وبفعل هذا المفهوم كانت العودة إلى التأكيد على آيات التسامح وعدم الإكراه وإظهارها والاستدلال بها وتجاهل ما قاله علماء القرآن من كونها منسوخة بآية السيف. كما كان التأكيد على الطبيعة العقلانيَّة للإسلام، فالعقل هو سبيل الإيمان، والعقل مقدَّم على الشرع إذا تعارضا، كما كان التأكيد على ألَّا وساطة بين المسلم ونصوص القرآن والسَّنة، تماماً مثلما لا وسيط بينه وبين الله في العبادات.

ومن بين أبرز أعلام الإصلاح الديني محمَّد عبده، وهو يُعرّف الجهاد في سياق تفسيره البقرة2/ 218: «إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم»، بأنَّ المجاهدة هي من الجهد وهو المشقة، وليس خاصَّاً بالقتال؛ فالمؤمنون «الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الحق، والذين بذلوا جهدهم في مقاواة الكفار ومقاومتهم هم الذين يرجون رحمة الله تعالى وإحسانه»[19] معتبراً أنَّ الجهاد بالنفس، بمعنى القتال، أو الجهاد بالمال، لم يشرّعه الله للمسلمين

18- يقول محمَّد عبده في تفسير الآية "لا إكراه في الدين": "قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام وركن عظيم من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه"، محمَّد عبده: الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، بيروت/ القاهرة، دار الشروق، ط1، 1993، ج.4: في تفسير القرآن، ص 704.

19- محمَّد عبده: المصدر السابق، ص 560.

إلا للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها». أمَّا القتال ابتداء فهو غير محتمل في ما جاء في القرآن بشأن الجهاد. والملاحظ أنَّ محمَّد عبده يميز بين «الجهاد بالنفس» ويراه دالاً على القتال دفاعاً عن الحق وأهله، وبين أصناف أخرى من الجهاد من بينها الجهاد بالمال، ومجاهدة النفس من أجل «الاستقامة على طريق الحقّ القويم الذي لا يضلّ سالكه». وكلّ هذه المعاني رآها دليلاً يبطل في نظره «ما يهذي به أعداء الإسلام، وحتى من المنتمين إليه، من زعمهم أنَّ الإسلام قام بالسيف».[20]

أمَّا الاعتداء، فقد حُرّم واعتُبر من «السيئات المكروهة عند الله، لذلك يؤكد أنَّ تقديم الدعوة» كان شرطاً لجواز القتال»، وأنَّ الدعوة إلى الإسلام كانت بالحجَّة والبرهان لا بالسيف والسنان، ويلخص مواقفه هذه في قوله: «إذ أمرنا أن ندعو إلى سبيل ربّنا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن معتمدين على أن نبين الرشد من الغيّ بالبرهان، هو الصراط المستقيم إلى الإيمان، مع حريَّة الدعوة وأمن الفتنة، فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار، أي أنَّه ليس من جوهره أو مقاصده وإنَّما هو سياج له، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة».[21]

من الواضح أنَّ هذا الفهم كان يبشّر بالقطع مع البراديغم التكفيري العنيف الذي ثبّت قواعده ابن تيمية وكثير من الفقهاء الحنابلة، من أجل إرساء براديغم جديد يجمع بين القيم القرآنيَّة وبعض القيم الحديثة التي بدأت تتسرَّب إلى الوعي الإسلامي وخاصَّة قيمة حريَّة المعتقد. ولكنَّ هذا المسار ما كان يخلو من انقطاعات وتراجع ظهر بشكل واضح في تراجع رشيد رضا عن مواقف شيخه وعودته ليتبنَّى موقفاً متشدّداً و«عقيدة جهاديَّة» كان لأوضاع العالم الإسلامي الواقع تحت الاستعمار أو المهدَّد بالوقوع تحت هيمنته أثر في تشكيله، موقف منطلقه من جهة اعتبار الاستعمار الغربي حرباً صليبيَّة جديدة تفرض على المسلمين قتال الفاعلين فيها، وذلك لا يكون إلا باستعادة رابطتهم الجامعة في إطار الخلافة الإسلاميَّة، واعتبار أصحاب المواقف الداعية إلى التفاعل الحضاري مع الغرب والمتبنية لبعض قيمه الحديثة «ملاحدة متفرنجين مارقين عن الإسلام»[22] من جهة أخرى. وقد مثلت مواقف رشيد رضا التي استعادت خطاب التكفير وعقيدة الجهاد أو الحرب الدينيَّة ورفضت كلّ مراجعة للعلاقة بين الديني والسياسي[23] أرضيَّة مناسبة استند إليها تيار الإسلام السياسي الجهادي.

20- المصدر السابق نفسه، ص 705.

21- المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

22- رشيد رضا: الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، مؤلف ردّ فيه رشيد رضا على كتاب الشيخ علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم"، منشور على النت:

https://vb.tafsir.net/tafsir38383/#.WTCySOvyhdg

23- المرجع السابق نفسه، تاريخ الدخول: 2017/06/01

الإسلام السياسي الجهادي: الجهاد حرب مقدّسة من أجل غايات مدنّسة:

افتتحت جماعة «الإخوان المسلمون» بمصر هذا التيار الجامع بين «الإسلام» مرجعيَّة «إيديولوجيَّة» والبرنامج السياسي، وكان لحسن البنا وسيد قطب دور هام في بلورة إيديولوجيتها بصفة مباشرة، كما كان لأبي الأعلى المودودي دور غير مباشر باعتباره مرجعاً أساسيًّاً ضمن مرجعيَّة أعلام التنظيم الإخواني، حيث أكَّد البنّا، ردّاً على مواقف النخبة التحديثيَّة التي كانت ترى في جملة من القيم والنظم التي قام عليها التمدُّن الغربي حلاً ممكناً للخروج من الانحطاط والتخلف، أنَّ الإسلام دين ودنيا ودولة، وأنَّه لا مجال من ثمَّة للتفكير في أيّ حلّ خارج نطاق شريعة الإسلام، كما أنَّه لا مجال للتحرُّر من الهيمنة الاستعماريَّة إلا بالجهاد، فالجهاد فريضة من فرائض الإسلام شأنها شأن الصلاة والصوم. وهو يربط الجهاد بهدف حماية الدعوة وأداء الرسالة، وليس بردّ العدوان الاستعماري عن الأوطان أو بالدفاع عنها، فهو لا يعترف بالرابطة الوطنيَّة، لأنَّه لا بديل في نظره للرابطة الدينيَّة، والجهاد عنده ليس لردّ العدوان على الدعوة والرسالة فحسب، بل هو كذلك لنشرهما وللعمل على حمل الناس على الاستجابة لهما، إذا لم يكْفِ تبليغ الدعوة وحده لتحقيق هذا المطلب.

ومع المودودي تبلورت أكثر العقيدة الجهاديَّة، وكان لمصطلح الحاكميَّة موقع مركزي في هذه العقيدة، حيث عدّ الحكم والسلطان لله وحده، ما يعني انتفاء حاكميَّة البشر، واعتبر أنَّ رسالة الإسلام نسخت ما قبلها من شرائع سائر الأنبياء، ما يعني أنَّ على هؤلاء أن يسلموا أو أن يُحملوا على الإسلام بواسطة الجهاد، ولا يقبل منهم شيء آخر غير الإسلام، ذلك أنَّ صلاح الإنسانيَّة، التي دخلت حالة جديدة من الجاهليَّة، متوقف على أسلمتها، إذ المطلوب في نظر كلٍّ من المودودي وسيد قطب وغيرهما، أن يكون للإسلام راهناً الدور نفسه الذي لعبه زمن ظهوره، وهو القضاء على جاهليَّة العصر الراهن بعد أن كادت تعمّ العالم. وبناء على هذا التشخيص لواقع العالم ولواقع الحكومات في البلاد الإسلاميَّة، أصبح الجهاد في نظر أعلام الإسلام السياسي الجهادي أكثر أهميَّة من الصلاة والصوم. والجهاد في هذا المشروع جهاد دفع موجَّه ضدّ القوى الاستعماريَّة، وهو لا ينفصل عن مفهوم القتال، إذ لا يتوقف الأمر في هذه الوضعيَّة على ردّ المعتدي، بل يتجاوزه إلى ملاحقته حيثما كان من أجل حمله على الإسلام، باعتبار أنَّ هذا هو الحل الجذري لنصرة الإسلام ولتبليغه إلى العالمين، وجهاد مبدئي أو داخلي يستهدف الأنظمة والحكومات الفاسدة التي تقدّم الرابطة الوطنيَّة أو القوميَّة على الرابطة الدينيَّة، والتي تحكّم قوانين وضعيَّة وتحتكم إلى نظم مدنيَّة بدل أن تحتكم إلى شرع الله، وأن تسلّم بأنَّ الحاكميَّة لله وحده. وبهذا المعنى يصبح مفهوم الجهاد مرادفاً تماماً لمفهوم القتال. وقد لاقى الفكر الجهادي دفعة جديدة من التطرُّف والتكفير مع سيد قطب، الذي رأى أنَّ الحاكميَّة لله وحده، وأنَّ العودة إليها تحتاج طليعة تنفصل عقيدياً وشعورياً عن أهل الجاهليَّة والكفر، وهذا

هو دور الحركة الإسلاميَّة.[24] وسيد قطب يختلف في موقفه هذا حتى مع حسن البنا الذي لم يكفّر المجتمعات الإسلاميَّة، ورآها تحتاج إلى تثبيت إسلامها وتدعيمه بتغيير العوائد التي ابتعدت فيها عن الإسلام الصحيح حتى تكون جديرة باختيار الله لها لتكون قوَّامة على البشريَّة، ولتقود حرباً مشروعة تعمّ بها الإسلام ومعه ألوهيَّة الله على الأرض، فغاية الجهاد هي «قيام مملكة الله في الأرض وإزالة مملكة البشر وإزالة السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد وردّه إلى الله وحده وسيادة الشريعة الإلهيَّة وحدها وإلغاء القوانين البشريَّة».[25] أمَّا الوسيلة المناسبة لتحقيق هذه الغاية فلا يمكن أن تكون إلا السيف.[26] ولكنَّ بلوغ هذا المستوى الكوني وتحقيق هذه الغاية القصوى مشروطان بشرط مسبق وهو إقامة الدولة الإسلاميَّة داخليًّا، بمعنى إقامة نظام في الحكم يلتزم بتحكيم الشريعة الإسلاميَّة وقيم الإسلام في إدارة المجتمع، خاصَّة وأنَّ هذا المجتمع ما فتئ يبتعد عن الإسلام ويعود إلى أنظمة الجاهليَّة. وهكذا صار الاستيلاء على السلطة من أجل إقامة حكم الإسلام المضمون الرئيس للجهاد عند حركات الإسلام السياسي ومنها حركة الإخوان المسلمين، وقد عبَّر كتاب سيد قطب عن عقيدتها تلك، أو جماعة الجهاد، وقد عبَّرت عن عقيدتها رسالة أمينها العام محمَّد عبد السلام فرج «الفريضة الغائبة»[27]، وفيها يذهب إلى أنَّ «الأحكام التي تعلو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر، بل هي قوانين وضعها كفَّار وسيّروا عليها المسلمين»[28]، وإلى أنَّ «حكام العصر قد تعددت أبواب الكفر التي خرجوا بها من ملّة الإسلام، بحيث أصبح الأمر لا يشتبه على كلّ من تابع سيرتهم».[29] وما دام الأمر كذلك فإنَّ الهدف الأول للجهاد هو إسقاط هذه الأنظمة التي تحكم بأحكام الكفر وإخراج الحكم من أيدي هؤلاء الحكَّام الذين ثبت خروجهم من ملّة الإسلام. وكان من البديهي أن يجد دعاة هذا الجهاد حجَّة لهم في فتاوى ابن تيمية خاصَّة، نظراً للتماثل بين تقييمه وتقييمهم لأنظمة الحكم في البلاد الإسلاميَّة في العصرين، وبهذا مثلت أقوال ابن تيمية ومواقفه وفتاواه بشأن الجهاد المرجع الأساسي الذي استند إليه أعلام جماعات الإسلام الحركي-الجهادي، منطلق هذا التصوُّر تكفير نظام الحكم وتكفير فئات واسعة من المسلمين، فدعوة إلى الجهاد ضدّ هؤلاء من أجل إرجاع الحكم إلى الإسلام، فجهاد ضدّ «دار الكفر» من أجل توسيع دار الإسلام وتحقيق عالميَّة الدعوة الإسلاميَّة. وقد قدَّم هذا الإسلام الحركي نفسه في صورة المؤهَّل لإعادة إقامة الخلافة ومعها نظام الحكم الإسلامي. وبهذا تحوَّلت هذه الجماعات التي تمثل الإسلام الحركي إلى جماعات سياسيَّة-حزبيَّة، وأصبح الجهاد مفهوماً تُخاض بواسطته المعركة السياسيَّة الرامية إلى الاستحواذ على السلطة، بل تحوَّل إلى سلاح من أقوى الأسلحة التي تستخدمها الجماعات المتطرّفة في أعمالها الإرهابيَّة، وهو ما يتطلب

24- سيد قطب: معالم في الطريق، القاهرة، دار الشروق، د.ت، ص ص 64، 66، 69.

25- سيد قطب: المصدر السابق، ص 68.

26- المصدر السابق نفسه، ص 72.

27- محمد عبد السلام فرج: الجهاد، الفريضة الغائبة، الرسالة منشورة على النيت:

http://unfulfilledduty.weebly.com/uploads/1/8/5/3/18537222/_.pdf

28- المرجع السابق، ص 5.

29- المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

عناية خاصَّة لتفكيك الآليَّات التي حوَّلت الجهاد من مفهوم قرآني يحيل على ما يبذله المسلم من جهد مع ذاته من جهة حتى يهيئها لتلقي قيم الرسالة الجديدة ولتفعيلها في سلوكه وفي حياته، وفي خدمة الرسالة من جهة أخرى بردّ ما قد يعرض للمؤمنين بها من ظلم وما قد تلقاه من اعتداء، إلى مفهوم فقهي تداولته أفهام البشر على مرّ تاريخ الدولة الإسلاميَّة، وأقحم إقحاماً في مجال الفعل السياسي، وانتهى به الأمر ليكون وسيلة وسلاحاً تخاض بهما معارك دنيويَّة «مدنّسة» تتحكَّم فيها وتوجّهها مصالح البشر المتعارضة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم: مصحف الجمهوريَّة التونسيَّة، برواية قالون عن نافع المدني.

- ابن أنس، الإمام مالك: الموطّأ، تصحيح محمَّد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1985.

- ابن تيمية، تقي الدين: فقه الجهاد، تهذيب وتعليق الشيخ زهير شفيق الكبي، بيروت، دار الفكر العربي، 1992.

- الرازي، فخر الدين محمَّد بن عمر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 2004.

- الشافعي، محمَّد بن إدريس (ت204): الأمّ، تحقيق وتخريج رفعت فوزي عبد المطلب، بيروت، دار المعرفة، 1990.

- الطبري، محمَّد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقّقه وخرّج أحاديثه محمود محمَّد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ط2، د. ت.

- الكرمي، مرعي بن يوسف (ت1033هـ): قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن، نسخة إلكترونيَّة، ص28.

http://www.al-ostafa.info/data/arabic/depot/gap.php?file=000120-www.al-mostafa.com.pdf

- مسلم: الصحيح، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط1، 1998.

- أحمد، محمود محمَّد: تطوُّر مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت/ القاهرة/ الدار البيضاء، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر، ط1، 2015.

- رضا، محمَّد رشيد: الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، مؤلف ردّ فيه رشيد رضا على كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، منشور على النت. https://vb.tafsir.net/tafsir38383/#WTCySOvyhdg

- الشريف، ماهر: تطور مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي، مقال منشور على النات على موقع «البيت العربي»:

http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/2.5/es/deed.en

- عبده، محمد: الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، بيروت/ القاهرة، دار الشروق، ط1، 1993.

- فتوى جماعيَّة في الردّ على فتاوى ابن تيمية في الجهاد، موقع قناة «العربيَّة:

http://www.alarabiya.net/articles/2010/03/31/104561.html KSA 00: 30 - GMT 21: 30.

بتاريخ الأحد 09 ذو القعدة 1431هـ - 17 أكتوبر 2010م.

- فرج، محمَّد عبد السلام: الجهاد، الفريضة الغائبة، الرسالة منشورة على النت: http://unfulfilledduty.weebly.com/uploads/1/8/5/3/18537222/_.pdf

- قطب، سيد: معالم في الطريق، القاهرة، دار الشروق، د. ت.

- نولدكه، تيودور: تاريخ القرآن، تعديل فريديريش شيفالي، هيلسهايم/ زيوريخ/ نيويورك، دار نشر جورج ألمز، 2000.

- Blachère, Régis: Le Coran; traduction selon un essai de reclassement des sourates; Islam d'hier et d'aujourd'hui; Paris; G.P. Maisonneuve; 1948.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018